الدرس رقم:01/ "ريموند وليامز"؛ مفهوم الثّقافة، الثّقافة والمجتمع، مفهوم البنى الشّعورية

****1/نبذة عن حياته:***

ولد في 31أوت1921وتوفي في 26 يناير1988، أكاديميّ وروائيّ وناقد، وهو شخصيّة مؤثّرة داخل اليسار الجديد وفي الثّقافة، ساهمت كتاباته عن السّياسة والثّقافة والإعلام الجماهيريّ، والأدب مساهمة كبيرة في النّقد الماركسيّ للثّقافة والفنون، باع نحو 750,000نسخة من كتبه في إصدارات المملكة البريطانية المتحدّة وحدها، وضعت أعماله الأسس لمجال الدّراسات الثّقافية والنّهج المادي للثّقافة، تحصّل على درجة الماجستير من كامبريدج عام 1946 وعمل كمدرّس في تعليم الكبار بجامعة أكسفورد لعدّة سنوات.

****2/مفهوم الثّقافة:***

في تعريفه للثّقافة، تعقّب "وليامز" **الأصول المعقّدة** لكلمة الثقافة؛ وتوصّل إلى ثلاثة معاني، قام بالتّمييز بينها،

-1/إذا كانت هذه الكلمة ممتدّة في الرّيف لتكن في البداية أقرب إلى معنى كلمة "كياسة" وكلمة كياسة تأتي من الفعل كيّس، وكيّسه، وتعني أدّبه، وجعله **فطنا**.

-2/وغدت الكلمة في القرن 18، تعني **الحضارة**، بما تشير إليه من سيرورة عامّة من التقدّم الفكريّ والرّوحي والماديّ.

-3/بعد أن ترادفت الثّقافة مع الحضارة برز الجوّ الّذي أشاعه عصر التّنوير في أوروبا، والّذي كان يجلّ التطوّر **العلماني**.

****3/الثّقافة والمجتمع:***

ولمّا كان النّاقد الأدبيّ الماركسيّ "وليامز ريموند" مهتما **بالمجتمع** وكيفيّة تطويره عاد في إحدى دراساته وبحث في **الثّقافة ودورها في المجتمع**، وقدّمها لنا في أربعة معان:

-1/الثّقافة بوصفها طابعا عقليا **فرديا**.

-2/الثّقافة بوصفها حالة من التطّور الفكري الّذي يصيب **مجتمعا** كاملا.

-3/ الثّقافة بوصفها الجانب الّذي يهتمّ **بالفنون**.

-4/ الثّقافة بوصفها طريقة حياة **لمجموعة** من البشر.

***ملاحظة**:

ما يلاحظ على هذا التّعريف: أنّ الثّقافة قبل "وليامز" كانت ناتجة عن وصفها حالة فكرية أو جانبا يهتمّ بالفنون، ولكن ما حدث هو أنّ الدّافع السّياسي ل"وليامز" باعتباره ماركسيا، عتيدا، هو الّذي دفعه إلى وصفها بأنّها حالة فكريّة تصيب مجتمعا كاملا، ذلك أنّ حصر تعريف الثّقافة بوصفها أداة تهتمّ **بالفنون** فقط، يعني المخاطرة بإقصاء **الطّبقة العاملة** من أن تكون مثقّفة، وهذا آخر ما كان يريده "وليامز"، لكن مع التّعريف الّذي **أضافه** للثقافة، كان بوسع مفهومها أن يضمّ **المؤسّسات العمّالية**، كالنّقابات، وتعاونيات الطّبقة العاملة وصار بمقدور الطبقة العاملة أن تنتج ما يمكن أن نعتبره منتجا ثقافيا.

ورأى "وليامز": أنّ ما **أفسد** النّاس ليس **وسائل الإعلام الجديدة** بل الانقسامات الطبقيّة وسوء توزيع الثّروة النّاجمين عن دافع الرّبح والملكيّة الخاصّة، واستهدفت مقاربة "وليامز" للثّقافة نوعا من الماركسيّة السوقيّة الّتي اختزلت الثّقافة إلى مساعد للاقتصاد، وعلى غرار "أنطونيو غرامشي" الإيطالي، عرّف "وليامز" الثّقافة كحقل جوهري فيه يعبّر عن **القوّة** والتّجربة والجدل وكما قال: "تحافظ طبقة معيّنة على هيمنتها الجوهريّة في المجتمع ليس فقط من خلال القوّة، وإن كان هذا ضروريا، وليس فقط من خلال الملكيّة، وإن كان هذا دائما، تحافظ عليها أيضا وبشكل حتميّ من خلال ثقافة معيشة؛ من خلال **التشبّع بالعادة والخبرة والنّظرة**".

ومن خلال كتابه "الثّقافة والمجتمع" وما صدر بعده ليكمّله "الثّورة الطّويلة" (سنة1961)، نقل "وليامز" اهتمامه من التّراث إلى بريطانيا المعاصرة، وأكدّ أنّ الثّقافة "نشاط عاديّ" وليست تخصّصا حكرا على النّخب المتفرّعة، بل تشمل: "طريقة كاملة في الحياة"، وهي أيضا جوهريّة، وليست "صلاة نعمة" بعد الوجبات" بل **نسخة مطوّرة من الجهود الضّرورية** الّتي نبدلها كلّ يوم كي نفهم (من خلال **التّفسير والوصف**) بيئتنا نتمكّن من أن نعيش فيها بنجاح أكبر. ما اعتبر بوصفه "ثقافة" لم يكن ما درس في قاعات المحاضرات في كمبريدج في آب/ أغسطس، فحسب أو ما يعرض في المتاحف بل يمتدّ كي يشمل **جميع أنواع الأنشطة** الّتي ينظر إليها بوصفها "ثقافة"، أيّ "مؤسّسة الطبقة العمّالية الكبيرة" كنقابات العمّال".

***4/مفهوم البنى الشّعورية:**

كانت العبارة "المتناقضة بشكل متعمّد" –حسب رأيّ الدّارسين للثّقافة–الّتي ابتكرها "وليامز" للتّعبير عن هذه الاستمراريّة بين التّجربة الاجتماعيّة والتّعبير الثّقافي، هي: "بنية الشّعور" وهي **وسيلة لدى الفرد** يحلّل بواسطتها **الفنّ** بوصفه: "سجلا مفصّلا لشيء ما كان ملكيّة عامة إلى حدّ كبير"، وسلّط هذا المفهوم الضّوء على "مجال التّفاعل بين الوعي الرّسمي لمرحلة، والعملية الكاملة للعيش الفعليّ لنتائجها".

5/الأدب لا يدعّم احتكار الثّقافة:

ـــ لقد ادّعى اللّيبيراليون أنّ القيّم المكرّسة في مؤسّساتهم السّياسة، مستنبطة من أعمال دانتي، وجوته، ستندال، لكن الحقّ ما يهمّ هو ليس الأعمال الّتي أنتجتها أعظم الأدباء، ولكن الطّريقة الّتي تؤوّل بها هذه الأعمال على نحو مجتمعيّ، ففي النّهاية، تقدّم الأعمال الأدبيّة كدليل وحدة الرّوح الإنسانية أو على تفوّق التّخييلي على الفعليّ، إنّ الأمر الأساسيّ، عندما نتحدّث عن الثّقافة هو أنّ قيّمها لا تمثّل أيّ شكل حيادّي محدّد، وإنّما هي قيّم الإنسانيّة.

الخاتمة:

لقد كتب "وليامز" بغزارة لا حول **النّظرية والتّحليل الثّقافي** فحسب، أيضا روايات وسيناريوهات ونشرات، وكذلك مئات المقالات والمراجعات، ويدين نتاجه الغزير بشيء ما إلى الطّريقة الّتي أدار بها **تعليمه.**

لذلك وصفته المحلّلة النّفسية والنّسوية الاشتراكيّة "جوليت ميتشيل" في حفل التأبين الّذي أقيم سنة 1989 بقولها: "ذلك أنّ "ريموند وليامز" بالنّسبة لي يمتلك **أهميّة أسطوريّة** تقريبا. أمّا أعماله، فما تزال حاضرة". وقال: عنه زميله: "تيري إيغلتون" "شخصيّة أبويّة في معظم الأحيان ليس لي فقط، كان **أبويا جدّا** بمعنى ما، لقد نشأت السّلطة الأخلاقيّة لأعمال "وليامز" الفكرية والارتباط العاطفي الّذي ألهمته للآخرين من ضغوط حياته **والالتزام السّياسي** لكتاباته.